

الفقيه الشيخ سعدي الطاهر حرّاث ..اللفوي المنسي

بقلم المجاهد والمؤرخ | محمد زروال

مداخلة أُلقيت في 3 أبريل 2018م بثنائية المحتفى به بعد الظهر.



وأنا أكتب هذه السطور فأول الشكر الذي يجب عليّ أن أقدمه إنما أسوقه إلى والي ولاية تبسة الذي احتضن هذا الملتقى أول مرة بعد 37 عاما من انتقال المحتفى به إلى ربه فأفاض عليه من كرم الضيافة وحسن التنظيم ما يشجّع على المزيد من عقد مثل هذه الملتقيات التي تعترف بالفضل لأهله وذويه من العلماء المجاهدين والشهداء عند ربهم يرزقون.

وما أكثر العلماء العاملين والشهداء والمجاهدين في هذه الولاية، فالشكر كل الشكر نسديه لواليتها الذي جمعنا مع مناضليها ومجاهديها ومواطنيها، وإننا نغتنم هذه السانحة فننبّه المسؤولين عن مآثر الثورة وتاريخها الحافل في هذه الولاية المجاهدة أن يجمعوا المادة العلمية لهذا التاريخ المشرف الذي صنعوه بأيديهم ولكنهم عن كتابته وتقديمه للأجيال غافلون. ألا فليعلم الناس جميعا هذه الحقيقة الماثلة وهي أن المستعمرين الذين صنعنا من هزائمهم التاريخ، لن يكتبوا لنا التاريخ.

إنني سأقلب الصفحات التي تترجم حياة الشيخ الأولى بدءاً من النشأة ومختلف مراحل التعليم التي قطعها لأبدأ الحديث عن مسيرته الثقافية والثورية من خلال الصفحات التي كتبها عنه الشيخ محمد الصالح الصديق حفظه الله والتي جاء فيها: كان الشيخ الطاهر حرّاث عضواً في جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين، وقد كان من مهام

هؤلاء استقبال الطلبة الجزائريين الذين يصلون من القطر الجزائري إلى مدينة تونس للتعليم في جامع الزيتونة، فكان على أولئك الأعضاء أن يدبروا شؤون هؤلاء الطلبة الجدد مع إدارة الجامع ليمهّدوا لهم السبل لكي ينتظموا في سلك التعليم. يقول الشيخ محمد الصالح: "وعندما وصلت أول مرة إلى مدينة تونس للانخراط في هذا الجامع، استقبلني ثلاثة من أعضاء تلك الجمعية هم: الشيخ عبد الرحمن شيبان، الشيخ أحمد حسين والشيخ الطاهر حرّاث، فقاموا بالإجراءات الإدارية مع إدارة الجامع، فكان التحاقني به يسيرا لم يعرف التعقيدات الإدارية". ولا ينسى الراوي انطباعاته الأولى في أول لقاء له مع الشيخ الطاهر حرّاث فيصفه بقوله: "طويل القامة، أسمر اللون، جهوري الصوت، كثير الاعتداد بالنفس، اشتهر بفصاحة اللسان وقوة الجنان، كان إذا خطب شدّ المستمعين إليه في كثير من الإعجاب به والتأثر بفصاحته". ويواصل الراوي حديثه فيقول: "فعوض



الشيخ سعدي الطاهر حراث رفقة الرئيس الراحل هوارى بومدين.. (رحمهما الله)

أن يرفع الشيخ الطاهر حراث من معنوياتي بكلمات دافئة، منعشة، قال لي: ورغم كل هذا فإنني أسالك سؤالاً أدبياً، إذا أحببت عنه فإنك جدير بالدراسة في الزيتونة، فقلت له: أسأل ما تريد! فقال: كيف تُعَرَّب (جثته غير متأخر)؟".

قال الراوي: "فقلت له في لهجة من الاستخفاف بسؤاله: جثته فعل وفاعل ومفعول به، فقال: إنما سألتك عن كلمة (غير) ما محل إعرابها في هذه الجملة؟ فقلت له: منصوبة على الحال.

فقال: ولكن الحال يشترط فيه أن يكون مشتقا و(غير) لفظ جامد؟

فقلت له: إنه مؤوَّل، تقديره (مغايرا). فصاح: الله أكبر، لله درك، إن الجزائر قد أنجبت".

وعلق الراوي على هذا الامتحان اللغوي العسير الذي أدخله فيه الشيخ الطاهر حراث فقال: "كنت كلما لقيته بعد ذلك دعاني بسيبويه القرن العشرين".

ويزيد الراوي على ذلك فيقول: "وفي عام 1957م التقيت به بالمصادفة عندما كنت داخلا إلى إحدى المكتبات قريبا من جامع الزيتونة، فكان الشيخ واقفا مع صاحب المكتبة، فقدمني الأول إلى الثاني في كلمات معبرة هذا بعض ما أذكره منها: إنه نمط متميز لابن الجزائر، وهبه الله صفات لم يهبها لكثير غيره، إنه يمتاز بقوة في الروح تقهر النفس، وقوة في الخلق تقهر الغريزة، وقوة في الفكر تصنع العجائب". وعلق الراوي على ذلك فقال للشيخ: "هذا كثير، حسبك أن تقول: إنني جزائري زيتوني". (1)

وواصل الراوي حديثه فقال: "وعندما استأذنت صاحب المكتبة في الانصراف، ألقى عليّ الشيخ الطاهر حراث هذا السؤال اللغوي: ما هي الأفعال التي لا تبنى إلا للمفعول؟ فقلت له: إنها ستة أفعال هي: أعجب، زكم، هرع، امتنع، احتقر، واستشهد".

قال الراوي: "فالتفت إليّ صاحب المكتبة وقال له: أرايت أبناء الزيتونة كيف يشرفون العربية؟ قال: وخرجتُ شاكرا على حسن ظنه بي وأنا لا أستبعد أن يكون الشيخ قد أراد بسؤاله هذا أن يختبرني من جديد".

لقد كان الشيخ الطاهر ذكيا نكاء وقادًا، نشيطا نشاطا أهله للتقلب في مناصب الثورة عندما كان في تونس من عام 1957م إلى عام 1962م، ففي هذه الفترة ألقت السلطة التونسية المحلية في الحدود القبض على بعض المجاهدين وقافلة من الجمال، وقد

أين (صبري) من يذكر اليوم صبري بعد أعوام عزلة وشهور اسألوا الشعر فهو أعلم هلا أكلته الأسماك طي بحور

لقد كان للشيخ قلم سيال وأسلوب بديع وفكر حر يتجدد مع الزمن، فلقد أجمع كل من عرفوه على أنه كان شاعرا فحلا وأديبا مرموقا من أدباء الجزائر المفوهين، ولن يُذكر الشعراء الفحول والخطباء اللسنون في الجزائر إلا ذكر معهم الشيخ الطاهر حراث.

وقد دخل الشيخ في شريط ذكريات كل من تتلمذوا له، أو عرفوه في الحياة العامة، فقد حدّثني عنه الأستاذ محمد فارح اللغوي الضليع قال: "كان هذا في جبل عرفات عندما ألقى الشيخ الطاهر حراث خطابا في الحجيج الجزائريين علق عليه بأغلظ الأيمان قال: والله إنه كان خطابا لا يليقه إلا هو".

أما بعض من تتلمذ له في مدينة غنابة (وهو اليوم في الجمارك) قال عنه: سألت الشيخ ذات يوم طالبين في القسم أن يعرفا البلاغة فلم يحسنا الإجابة، فناداهما إلى المنصة وأعاد عليهما السؤال فلم يحسنا الجواب كذلك. فلطم الأول على خده الأيمن وقال له: البلاغة أن تسأل فتجيب، ولطم الثاني على خده الأيسر وقال له: وأن تجيب فتصيب".

تشددت تلك السلطة في موقفها، فأفشلت كل محاولة من جانب المجاهدين لاسترجاع تلك القافلة.

وعندما تقابل وفد رسمي عن الثورة مع السلطة التونسية كان الطاهر حراث هو الذي يقوده، فإنه قال للوفد التونسي: "إنني لا أسألكم عن الجمال ولكنني أسألكم عن المجاهدين إن كنتم بعتموهم للجيش الفرنسي؟" فتفاجأ أعضاء الوفد التونسي بهذا الجواب المفحم وأمروا بإعادة المجاهدين والجمال إلى الوفد الجزائري. (2)

نعم لقد تقلب الشيخ في بعض هذه المناصب ما أهله له كفايته العلمية وحدها بالتقلب حتى إذا أدركه استقلال الجزائر كان محافظا لحزب جبهة التحرير الوطني في ولاية عنابة، وفكر الشيخ ذات يوم في وضعه الحالي وما سيكون عليه مستقبله، فقرر العودة إلى ميدان التعليم، فكان مديرا لثانوية "عبد الحميد ابن باديس" وثانوية "رضا حوحو" بمدينة قسنطينة.

إنني أعتقد أن شخصية هذا الشاعر الرقيق قد عاشت صراعا نفسيا صامتا لم يخل من ألم ممض، فهو قد أحس ميلا أو شيئا من الميل إلى الصعود والترقي في مناصب الدولة، ولكن الأسباب لم تنهيا له أو قل إنها تهيأت له ولكن نفسه الذكية الوثابة لم تطاوعه في هذا الصعود والترقي، فانتهى إلى هذه العزلة الثقافية التي يصورها إسماعيل صبري في هذين البيتين:

- (1) تذكرني كلمة الزيتوني هذا التعليق على مقرر الولاية الثانية في المؤتمر الاستثنائي لحزب جبهة التحرير الوطني، فعندما كان يقرأ تقرير ولايته فإنه كان يلحن كثيرا، فقلت للشيخ الشبوكي الذي كان جالسا إلى يساري ما بال هذا المقرر كثير اللحن وهو متخرج في جامع الزيتونة؟ فأجابني قائلا: وهل كل زيتوني يعصر الزيت؟ ولكن شيخنا محمد الصالح الصديق يعصر الزيت ويقلبه.
- (2) وللأمانة العلمية نقول إن بعض الرواة ينسبون هذا الجواب لقائد الولاية الأولى صالح بن علي سماعيل.

وأما غير هذين هذين فقال لي: "كان ذلك في مدينة تونس عام 1957م عندما قلت للشيخ: أنت تعلمت العربية فلم لم تتعلم الفرنسية لتتخذ منها وسيلة للعيش؟ قال: فقال لي: يا حيوان! نحن نتعلم العربية لنجاهد بها".

كما حدثني عنه المجاهد إبراهيم جواوي قال: "عندما قرّر الشيخ العربي التبسي غلق المعهد فإنه جمع الطلبة وخاطبهم بقوله: بدءاً من اليوم فإن المعهد مغلق وليس في إضراب، لأننا ليس لنا حقوق نطالب بها حكومة فرنسا، إن الجهاد أصبح فرضاً وإن كل واحد منكم اليوم مطالب بالنهوض بشعيرة الجهاد".

أما الشيخ الطاهر حرّاث فإنه قال: "أبنائي، اليوم نودّع بعضنا بعضاً"، وأنشد على مسامعنا هذه الأبيات:

وطني بالدم الزكي أفديكا

يمينا شريفة وعهودا

وطني إننا ضحاياك في السلـ

م وفي الحرب بغية أن تسودا

فاتخذنا إذا أردت سيـوفا

وأحرقن إذا أردت وقودا

وعندما ألفت السلطة العسكرية الفرنسية القبض على الشيخ امحمد الشبوكي من مدينة الشريعة ونقلته إلى مدينة قسنطينة حيث أدخل السجن، زاره الشيخ الطاهر وقال له: "إنهم سينقلونك إلى المنفى وإني أنصح لك أن تعود إلينا من منفاك محملاً بديوان من الشعر أقترح عليك أن تجعل له هذا العنوان: (من ذوب القلب)".

ولما طالت مدة المنفى بالشيخ فإنه ناجى صديقه الطاهر حرّاث بهذه الأبيات:

نجي الفؤاد صديق العُمر

ويا طاهر القلب يا خيربر

كفيف الرفاق وأمالهم

وما جدّ في جوهم من خبر

فإني وإن كنت في عزلي

بجرف المسيلة وهي القدر

أعيش بروحي مع رفقتي

وأُشدّ فيهم نشيد الظفر

وعندما كان الشيخ محافظاً لحزب جبهة التحرير الوطني في ولاية عنابة، فقد جاء هو والشيخ امحمد الشبوكي مدينة قسنطينة



ذات يوم، وكان ذلك عندما دخل عليّ كبير الحرس في المكتب فقال لي: "إن الشيخين: امحمد الشبوكي والطاهر حرّاث بالباب يريدان مقابلتك".

فقلت له: "عد إليهما بسرعة وآتني بهما على عجل".

وجاء الشيوخان، وبعد الترحيب بهما سألتهما عن سبب زيارتهما. فقال لي الشيخ الطاهر: "إن دعاية كبيرة انتشرت في الأوساط الرسمية والشعبية في بعض الولايات بأن الشيخ امحمد اتخذ موقفاً سياسياً مضاداً لانقلاب 19 جوان، وإننا جئنا لنشرح لقائد الناحية العسكرية الخامسة براءة الشيخ من هذه الدعايات وننفيها عنه نفياً قاطعاً"، فهتفت إلى قائد الناحية قلت له: "إن كُلا من الشيخ الشبوكي والطاهر حرّاث يريدان مقابلتك وإنهما عندي في المكتب"، فقال لي: "إني أنتظرهما فليأتيا"، فصحبتهما إليه ورجعت إلى مكنتي.

وبعد وقت وجيز عاد إليّ بعد أن أقمنا قائد الناحية ببراءة الشيخ.

ولما حان وقت الغداء صحبتتهما إلى نادي الضباط. وعندما كنا منكبين على الأكل فإن الشيخ الشبوكي كان ينشد على مسامعنا قصيدة شعرية طويلة، تنتهي قافيتها دائماً هكذا: "آية". كنتُ أتابع الشيخ بشغف كبير لما يلقي على مسامعنا، ولكن الخبز كان قد فرغ من الطاولة فتوقّف الشيخ الطاهر عن الأكل لحظات في انتظار أن يتمّ الشيخ قراءة البيت الذي ينتهي بآية.

وعندما قال الشيخ "آية" حدّق إليّ الشيخ الطاهر وتبسم ضاحكاً وقال لي بصوت خافت: "والخبز في الكرباية"، فنادت الجندي الذي كان يقدم لنا الأكل: "أن أسرع إلينا بالخبز".

إنني أردتُ أن تكون هذه الكلمة محاولة أدبية تعبّر عن الجانب الأدبي في حياة الشيخ، ولكنني لم أقف له على آثار أعتمد عليها في إظهار مواهبه الأدبية وخطراته اللغوية. وقديماً قال أبو الطيب المتنبي:

عليم بأسرار الديانات واللغى

له خطرات تفضح الناس والكتبا

وكذلك كان للشيخ خطرات تفضح الناس والكتب ولكنها خطرات، للأسف الشديد، لم يتركها لا في الكتب ولا في دواوين الشعر، اللهم إلا ما يشهد له به من هذه الخطرات كلّ من عاشروه واحتكوا به.

وعلى الرغم من البحوث التي أجريناها قصد العثور على إنتاجه الأدبي فإننا لم نعثر إلا على قصيدتين اثنتين نشرهما بعض القراء في الشبكة العنكبوتية. (3)

أما القصيدة الأولى فإنه يصف في القسم الأول منها الصحراء وطبيعتها الخلابة.

وأما القسم الثاني فإنه يتحدث فيه عن جهاد أبنائها من أجل استعادة خيراتها الباطنية واسترجاعها من الاستعمار الفرنسي إلى الشعب الجزائري.

وعدّد أبيات هذه القصيدة واحد وعشرون بيتاً، مطلعها:

هنا لك حيث المساء الجميل

وحيث الهواء النقي العليل

فإذا واصلتَ قراءتها استوففك الوصف الدقيق لجمال المساء في الصحراء وهوائها النقي العليل يداعب رُبّاه وحزونها.

ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن سراب الصحراء والتيه بين تلالها وقوافلها التي تمشي الهويّنا وأمواج رمالها التي تتلأأ مع أشعة الشمس إذا كان النهار ونور القمر إذا كان الليل فيقول:

وحيث السراب وحيث الجمال

وحيث المتاهات بين التلال

(3) معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين. إصدار مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري. (إدارة التحرير)

وحيث القوافل تمشي الوئيد

وأما رمل كثيف تبيد

وعندما يصف شاعرنا صخور الصحراء فإنه يضيف عليها هذا اللون الأسود الذي نرى أنه قد اقتبسه من القرآن الكريم في قوله تعالى (4) **ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود** [فاطر:27] ولكنها غرابيب نبت فيها الشوك فيقول:

صخور مجللة بالسواد

وحيث النبات نبات القتاد

وإلى هنا ينتهي القسم الأول من هذه القصيدة بعد أن ركب بنا الشاعر ظهر هذه الفلاة العطشى ونحن كرمالها عطشى فإنه ينتقل بنا الآن إلى بطن الصحراء التي أسالت خيراتنا لعاب المستعمرين، فيخصص القسم الثاني من القصيدة لنضال أبناء الصحراء وجهادهم المستميت رغم قساوة طبيعتها فيقول:

رموز التحدي بتلك الوهاد

حياض حوت ثروات البلاد

هناك الكنوز هناك المراد

هناك علت صيحة للجهاد

وقد أعلن الشعب شعب الكفاح

وشعب السلام وشعب السلاح

لتحرير صحرائنا الماجدة

وسرنا جميعا نشق الطريق

إلى حقنا دون عون الرفيق

وكان الحوار الشريف الدقيق

وكان القرار الوفي العميق

بتأميم ثروتنا الغالية

ويخاطب فرنسا فيصفها بأنها الشَّعب فيقول:

ألم تفهمي يا بلاد الشغب

بأن التحكُّم حكمٌ ذهب

وأنا عزمنا على أن نهب

ومنذ زمان لنيل الأرب

وأنا استعدنا سواقي الذهب

كأرض العناقيد أرض العنب

وإذا كانت هذه القصيدة تعبر عن نظرة الشيخ وأمله في أن تسترجع الجزائر حريتها واستقلالها موحدة وحدة ترابية، فإن القصيدة الثانية (خاطر ضرير) لسنا نعلم

شيئا عن الظروف العامة التي أحاطت بالشيخ فقالها. هل حرّ في نفسه الألم الممض لأحد أقاربه الذي حلّت به كارثة العمى فقال هذه

القصيدة يعزّيه بها ويحنو عليه حنو القريب لقريبه، أم أنه قالها يريد أن يختبر شاعريته في التعبير عن هموم الآخرين. وهي تتألف من ثمانية عشر بيتا.

وهي تعبير صادق عما يحسه كل من فقد بصره وأظلمت الدنيا أمام عينيه بعد أن عرف جمال الدنيا وعاش منعما بحسنها يمعن النظر في آفاقها الرحبة، استمع إليه في هذا المطلع الجميل:

عرفتُ جمال ذي الدنيا صغيرا

وأمعنتُ التملّي في رباها

وعانقتُ الحياة بها كثيرا

وغازلتُ الغزالة في سماها

ونازلتُ الفوارس مستثيرا

وعاجلتُ النفوس على مناه

وعاجلتُ المصاعب مستثيرا

وسابقتُ الكواكب في علاها

وبعد أن يتفنن الشاعر في وصف الحالة النفسية لهذا الضرير قبل أن تحل به آفة العمى فتحزن نفسه وتتألم ألما ممضا لهذه الظلمة التي أصبحت تلازمه ملازمة الظل للشيء، استمع إليه وهو يقول:

وها قد صرت بعدئذ ضريرا

تداعبني الحياة ولا أراها

فيا حزني على بصري وعزي

وأها للمصائب ثم أها

ويتذكر أيام حدة بصره عندما كان دليلا لكل سار في الليل وسار بالليل فيقول:

وكنتُ لكل سارية دليلا

أراقب سيرها وأرى عداها

أمد الطرف مخترقا طويلا

فأبصر بالنوائب في سراها

أما بعد أن أصابته آفة العمى فإنه أصبح كثير التملّ، ولكن تمهله هذا لن ينفعه دوما،

شعرتُ وكنتُ منكسرا ذليلا

بأن النور في الظلماء تاه

ثم انظر إليه في هذا البيت البائس الحزين من البرء والشفاء عندما يقول:

وأن البرء أضحى مستحيلا

وأن النفس قد فقدت منها

هواجس ما استطعت لها بديلا

تلح عليّ يؤلمني بكاه

مشاعرُ ما عرفتُ لها مثيلا

سوى حزني سوى ألمي حكاه

هذا قليل عن ثقافة الشيخ في جانبها الأدبي يتجلى منها أنه كان أحد رجالات النهضة الثقافية الجزائرية في القرن العشرين التي كانت تتحدى الاستعمار الفرنسي، وإنه لا يسعنا في الأخير إلا أن ندعو الله سبحانه وتعالى أن يجازيه أحسن الجزاء على هذه الخدمات الجليلة التي قدّمها للغة العربية المظلومة في عقر دارها. كما أننا ندعو الله أن يوفق تلامذته وطلابه أن يواصلوا أداء رسالته العلمية التي فرغ نفسه لخدمتها، وعسى أن يجتهد الجيل الذي خلفه من بعده فينهض للبحث عن آثاره وبحوثه المتفرقة في الجرائد والمجلات لكي ينتفع بها القراء ويستفيدوا منها.

(4) **جدد**: جمع جُدة بضمة على الجيم، وهي ما كانت صخورا بيضاء اللون أو قريبة من البياض، أما الجدد الحُمْر فهي الحجارة الحمراء تكون في الجبال عادة.

غرابيب: جمع غريب، وهو اسم الشيء الأسود الحالك سواده وليس له مادة يشق منها، ولعله مأخوذ من الجامد وهو الغراب الذي عرف بسواد لونه.

سود: جمع أسود وهو الذي لونه لون السواد، فيقال: أسود غريب، ويقال أبيض يقق وأصفر فاقع وأحمر قان، ولا يقال: غريب أسود. التحرير والتتوير/ج22، الدار التونسية للنشر (تونس)، المؤسسة الوطنية للكتاب (الجزائر)، ص302-303.